جـــامعة محمد بوضياف ـ المسيلة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

محاضرات في مقياس:

المذاهب الفلسفية الكبرى

د. خيرة بورنان

kheira.bourenane@univ-msila.dz

جـــامعة محمد بوضياف ـ المسيلة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

الاسم واللقب : د. خيرة بورنان

البريد الإلكتروني: kheira.bourenane@univ-msila.dz

المقياس:

المذاهب الفلسفية الكبرى

- المستوى الدراسي: ماستر1
- السداسي: الثاني
- الرصيد : 2
- المعامل: 1

السنة الجامعية: 2019 ـ 2020

المقياس: المذاهب الفلسفية الكبرى

1- بطاقة التواصل ومعلومات

الاسم واللقب : **د. خيرة بورنان**

البريد الإلكتروني : **kheira.bourenane@univ-msila.dz**

- **الكلية :** العلوم الإنسانية والاجتماعية
- **القسم :** تاريخ
- **المستوى الدراسي:** السنة أولى جذع مشترك
- **السداسي:** الثاني
- **الرصيد :** 2
- **المعامل:** 1

2- أهداف المقياس (وفق المنهاج) :

- الاطلاع على الصراع المذهبي وخلفياته ونتائجه.

3- الأبواب:

الباب الأول : المذهب العقلي

الهدف:

- الاطلاع على الصراع الفلسفي في ما يخص أصل المعرفة
- بيان دور العقل في عملية المعرفة

الباب الثاني: المذهب التجريبي

الهدف:

- بيان دور التجربة والحواس في عملية المعرفة

الباب الثالث: المذهب الوضعي

الهدف:

- الاطلاع على تطبيقات المنهج الوضعي في العلوم الإنسانية

الباب الرابع: المذهب الوجودي

الهدف:

- التعرف على مبادئ المذهب الوجودي

المسيلة في : 25مارس 2020

إمضاء الأساذ:

بسم الله الرحمن الرحيم

على سبيل التمهيد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عزيزي الطالب:

تأتي هذه المحاضرات والعالم بأسره يعيش "أزمة فيروس عابر للقارات"، وضعت الإنسان الذي ظن أنه غادر "مرحلة الإنسان" إلى غير رجعة، وأنه على عتبة "مرحلة ما بعد الإنسان". ولأن الفلسفة تساؤل نقدي جريء: فإن السؤال الذي يطرح: ما قيمة العقل الذي اعتقد الإنسان المعاصر أنه يقوده إلى عالم من دون مشاكل؟ ما قيمة مخابر علمية تنجز بحوثا في تخصصات دقيقة جدا، كالهندسة الوراثية والاستنساخ...إلخ بهدف الوصول إلى إنسان مرحلة ما بعد الإنسان؛ إنسان لا تقهره الطبيعة، مجهرية كانت أو غير مجهرية؟؟؟ هل سيعيش هذا الإنسان أزمة وجودية(قلق، توتر، اكتئاب...إلخ) مماثلة لتلك التي عرفها الفرد الأوروبي بعيد الحربين العالمتين الأولى والثانية؟ هل ستعرف الفلسفة الوجودية انبعاثا لها، كترياق لهذا الفرد المتأزم؟ أم أن البشرية ستنزع نزوعا آخر، ويعرف تاريخها مسارا آخرا، وتعرف الحضارة دورا آخر؟ هذه الأسئلة وغيرها كثير تجعل منك عزيزي الطالب شاهدا على اللحظة، متأملا في أسبابها، ومتوقعا لنتائجها. والمذاهب الفلسفية قد تكون معينا لك لتشكل رأيا أو تفهم موقفا، أو تحلل وتنقد آخر، بعيدا عن الدوغماتية(الوثوقية) والتعصب.

وإذ تنفرد الفلسفة بخاصية لا توجد في سواها من الأنماط المعرفية الأخرى، كالدين والعلم والإيديولوجيا... بأنها ذات طابع مذهبي نسقي. ولقد عرفت الفلسفة عبر مسارها الطويل العديد من هذه المذاهب، التي قد يتفرع بعضها من بعض، وقد يتصارع الواحد منها مع الآخر صراعا يأخذ طابعا إيديولوجيا أحيانا كما هي الحال مع المذهب المثالي الهيجلي(نسبة إلى هيجل) لمَّا تحول إلى عقيدة لا يمكن الخروج عنها.

وهذه المحاضرات(المذاهب الفلسفية الكبرى) مناسبة لك أيها الطالب الكريم، للاطلاع على السجال المعرفي، الذي يعكس بحق حرية في الفكر وجرأة، قلما نجدها في أنواع أخرى من التفكير. وهذا ديدن الفلسفة.

على أمل أن تجمعنا مدرجات الجامعة قريبا ـ إن شاء الله ـ أتمنى لكم قراءة ممتعة في جوّ أسري صحيّ، وأسأل الله العلي القدير ،ليَّ ولكم ولكل جزائرنا الحبيبة، ولكل مسلم و كل من يؤمن بإنسانية الإنسان، وحقه في الحياة، السلامة من كلّ أذى وسوء، وموفور الصحة والعافية.

أستاذة المقياس: د. خيرة بورنان

المسيلة في: 2020/04/01

المحور الأوّل: المذهب العقلي الماهية وأبرز الرواد

المحاضرة رقم: 1

في ماهية المذهب العقلي

تمهيد:

قبل التطرق إلى موقف ديكارت للمعرفة، من الضروري الاطلاع على المذهب العقلي، الذي يعد ديكارت واحدا من رواده في الفلسفة الحديثة.

أولا: مفهوم المذهب العقلي

قبل التطرق للمذهب العقلي، لابد من معرفة دلالة بعض المفاهيم المتضايفة معه، والقريبة من ومن ذلك العقل والعقلانية.

1- العقل:

العقل لغة كما أورده ابن منظور في معجمه المشهور (لسان العرب) «العقلُ: الحِجر والنُهى، ضد الحمق، والجمع عُقول .. وقيل : العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها والمَعقول ما تعقله بقلبك .. والَعقل الديه».

والعقل اصطلاحا وعند الكثير من الفلاسفة العرب والمسلمين القدامى، من ضمنهم الكندي مدرك للأشياء بحقائقها، وفي هذا الصدد يقول الفيلسوف العربي الكندي: « **العقل جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها**». وقيل أنه "قوة الإصابة في الحكم"، وأنه قوة طبيعية للنفس متهيئة لتحصيل المعرفة العلمية.وهو أيضا إنه ملكة إدراك ما هو كلّي وضروري سواء كان ماهية أو قيمة وبالتّالي ملكة الربط بين الأفكار، باعتباره نسق من القوانين والمبادئ الكلية المنظمة. ومن هذه المبادئ: مبدأ الهوية، مبدأ عدم التناقض.

2- تعريف العقلانية

وهي من أوسع المفاهيم بحيث يصعب الإلمام بكل تعريفاتها؛ فقد أطلقت هذه التسمية على مجموعة المذاهب الفلسفية المختلفة التي يجمعها الإيمان بقدرة العقل وإعطائه الأولوية في المعرفة ورفض كل ما يبدو مخالفا للعقل أو ما يعجز العقل عن تفسيره.

3- تعريف المذهب العقلي

مذهب يرى أن كل معرفة يقينية تبنى على مبادئ قبلية واضحة لا تقبل النقص، فالحواس لا تقدم سوى نظرة ملتبسة وظرفية عن الحقيقة ويتطابق هذا المعنى مع النظرة الديكارتية لمفهوم العقلانية.

ثانيا: مسلمات ومبادئ المذهب العقلي

يشترك العقلانيون، على اختلاف مدارسهم، في جملة من المبادئ والأسس التي قامت عليها معظم تصوراتهم العقلانية ومن أهم هذه المبادئ:

– الأصل الأول للعلم الإنساني مصدره العقل، هذا الأخير كائن موجود بالفعل وفاعل باستقلال عن الحس والتجربة الحسّية؛ وهو يمثل قبل الحسّ والتجربة الحسّية شرطا جوهريا ومبدئيا لكل معرفة، بل هو يتضمن، عند فلاسفة المذهب العقلي الأكثر تطرفا، المعرفة بكاملها على نحو قبلي وكلّي.

– المعرفة عند العقلانيين هي حلقات كاملة وتامة تجري استعادتها وفق شروط صورية مستقلة، في الأساس عن التجربة.

– الحقائق التي يبلغها العقل حقائق كلية، أي أنّها عامة ومشتركة بين كل الناس، إذ تسلّم بها جميع العقول وضدّها الحقائق الجزئية الخاصة بشخص معيّن فقط أو بشيء محدد.

– الحقائق التي يبلغها العقل حقائق مطلقة وصادقة صدقا ضروريا ولا يأتيها الشك، ومنها يؤسس العقل معرفته اليقينية التي تصدق في كل مكان وزمان، وضدها المعرفة النسبية.

ويعتبر الفيلسوف والرياضي الفرنسي رونيه ديكارت رائد المذهب العقلي في العصر الحديث.

فيلسوف وعالم فرنسي تتلمذ في مدرسة "لا فلاش" la flèche اليسوعية ثم انضم إلى جيش "بافاريا" عام 1619. تحصّل على الإجازة في القانون. قطع مع المدرسانيّة (أرسطو وطوما الأكويني) لذلك يعتبره البعض لحظة حاسمة في تاريخ الفلسفة ومؤسّسا لفلسفة الذات. عُرف بحبّه للعزلة والتأمّل وتجنّب المجادلات والنزاعات. كانت له علاقات فكريّة مع الأميرة "إليزابات" ابنة أمير "بافاريا" ومع ملكة السويد "كريستينا" التي أقنعته بالرحيل إلى ستوكهولم؛ وقد دفعتها إرادتها وعنادها على أن يُعلّمها الفلسفة في الخامسة صباحا من كل يوم. وهكذا وجد نفسه ملزما بواجب غير فلسفي يوقظه في ظلمة ليل الشتاء السويدي.

داهمه المرض ومات في فيفري 1650. له مؤلفات عديدة أهمها : "مقالة في المنهج" (1637)، "التأملات الميتافيزيقية" (1641)، "مبادئ الفلسفة" (1644)، "انفعالات النفس" (1649).

المحور الأوّل: المذهب العقلي الماهية وأبرز الرواد

المحاضرة رقم: 2

المذهب العقلي عند ديكارت

أولا: الكوجيتو الديكارتي وميلاد فلسفة الذات

عاصر رونيه ديكارتDescartes René (1596-1650) تحولات معرفية وعلمية، انعكست على وجه الخصوص في النموذج المعرفي الجديد لديه، الذي تجلى في الدعوة إلى وحدة الحقيقة بين الفلسفة العلم، لأجل ذلك لقد اطلق ديكارت في كتابه (مبادئ الفلسفة) كلمة الفلسفة على مجموع العلوم ويشبهها بشجرة؛ أصلها علم ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا)؛ وساقها علم الطبيعة؛ والفروع الخارجة من هذه الساق هي سائر العلوم التي يمكن حصرها في ثلاثة هي: الطب والميكانيكا وعلم الأخلاق.

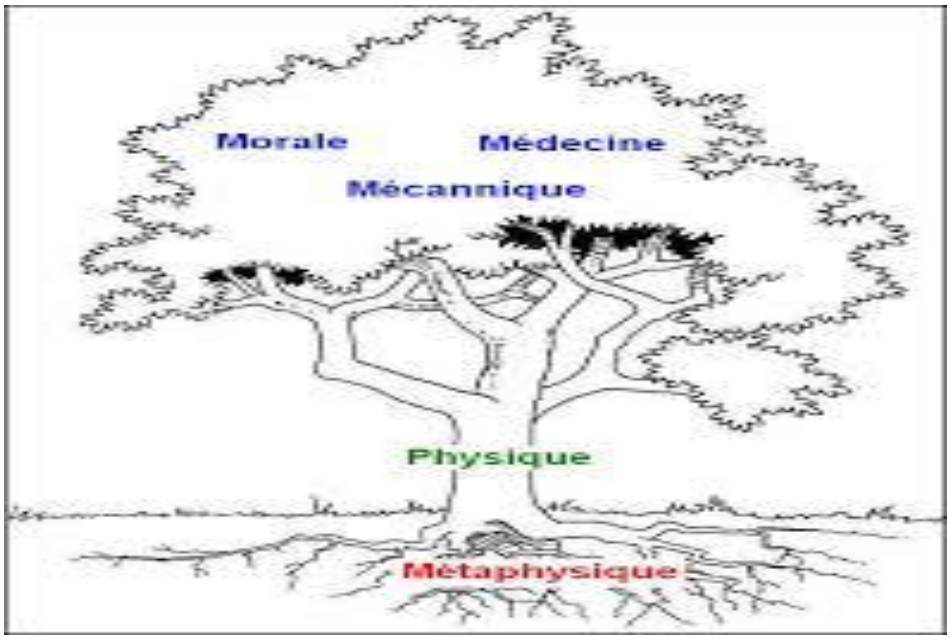

لقد بات من المؤكد عنده أن الحقيقة قد غيرت مقر سكناها، من متن الإنجيل إلى متن الطبيعة، وأنه لا سبيل لقراءتها(الطبيعة) ومن ثم بسط سيادة الإنسان عليها، إلا بفهم اللُّغة التي دونت بها أي الرياضيات. أدرك ديكارت جيدا أهمية هذا الدرس؛ الذي تجلى لديه في الدعوة إلى مفهوم جديد للفلسفة،

ينقلها من دائرة التأمل إلى فضاء الفعل والممارسة، فالفلسفة في شكلها وأفكارها الوسيطية لم تعد ملائمة لشروط العلم الصاعد، وأهدافه، فثمة فجوة بين العلم والفلسفة لا سبيل لتجاوزها إلا بتغيير في طبيعة الفلسفة، وأن نجعل أنفسنا بذلك بمثابة أسياد للطبيعة وممتلكين لها.

لقد كان ديكارت ـ إذن ـ معنيا بشكل مباشر بضرورة رفع الوصاية عن العقل وتطهيره من كل اليقينيات والوثوقيات التي ورثها واعتقد في صحتها دونما تمحيص أو شك، وأن يؤسس العلوم على أساس راسخ تنتفي معه الخلافات، وتزول الشبهات والمغالطات، يقول: « لقد كانت غايتي أن أثق بصحة ما أعلم وأن أبني علومي على الصخر والصلصال لا على المتحرك من الرمال».

وأوّل خطوة في الاتجاه الصحيح هي الرجوع إلى العقل كمبدأ للتفكير، ذلك أن اعتماد العقل في تحصيله للمعرفة على مرجعيات أخرى غير العقل جعلته أسير سوابق أحكام ومعارف مضللة، لذلك سيقرر ديكارت، فيما يذكر في التأمل الأول، أنه « لابد لي مرة في حياتي من الشروع الجدي في إطلاق نفسي من الأسس إذا كنت أريد أن أقيم في العلوم شيئا وطيدا مستقرا». وبالفعل شرع ديكارت في الشك في كل شيء: في وجود الله، في النفس، وفي العالم، لابد من « مسح الطاولة ». والسؤال الذي يطرح لم هذا توجه ديكارت نحو الشك؟

إنّ توجه ديكارت نحو الشك لم يكن نزوعا فطريا وحسب، أخرجه من "**حديث في النّفس**" إلى "**حديث الطريقة**"، فعصر ديكارت ـ بمعنى من المعاني ــ هو عصر الشك، وهو ما عبر عنه **مالبرانش** في قوله: «إنَّ المرء لا يعد رجلا بارعا ذا نخوة ما لم يشك في كلّ شيء». ويبلغ الشك مبلغه عند الفيلسوف الفرنسي مونتانيMichel de Montaigne (1533 ـ1592) على أن الشك يجب أن يكون نقطة الابتداء لا الانتهاء، كانت هذه قناعة البعض منذ نهاية القرن السادس عشر، ومن بينهم بيكون وديكارت.

ثُّم إنَّ الشك كمنهج ليس جديدا في تاريخ الفلسفة، ولا يرتبط رأسا بديكارت وحتما هو على وعي بذلك، جديد ديكارت أنه لم يتوقف عند لحظة الشك معتبرا إيَّاها المنتهى(موقف سقراط اللاإدري)، إذا كان شك السفسطائيين شك مذهبي، فالشك الديكارتي هو شك منهجي، غايته البحث عن الحقيقة وبلوغ اليقين. كما أنه لم يُطهر العقل من شكوكه ليجعل ملكية المعرفة في يد أداة غير العقل، كما فعل بيكون. لقد وُفقَ بيكون ـ كما سنرى في المحاضرة اللاحقة ـ في تخليص العقل من الأوهام التي أثقلته وأعاقته عن ادراك الحقيقة. لكنّه في المقابل لم يضع ثقته في العقل ـ الذي سبق تطهيره ـ بل في التجربة المحضة، وهنا علة اخفاق الإصلاح البيكوني من منظور ديكارت؛ فهو و إن حرر العقل أعاق تقدمه.

لقد شك ديكارت في كل شيء، لكنه توقف عند حقيقة واحدة، هي أنه يشك، ومادام يشك فهو يفكر، والنتيجة: «أنا أشك أنا أفكر إذن أنا موجود». وهي الترجمة العربية لمقولة ستفتح عهدا جديدا في تاريخ الفلسفة، إنها مقولة ديكارت: Cogito, ergo sum ومعناها إثبات وجود النفس من جهة كونها موجودا مفكّرا والاستدلال على وجودها بفعلها المتمثّل في الفكر، يقول ديكارت: « الفكر هو الصفة التي تخصني، وهو وحده لا ينفصل عني أنا كائن وأنا موجود : هذا أمر يقيني، ولكن إلى متى ؟ إنما أنا موجود ما دمت أفكر، فقد يحصل أني متى انقطعت عن التفكير تماما انقطعت عن الوجود أيضا». وعلى هذا الأساس رأى ديكارت أنّ العقل، أو الذّات حقيقة قائمة بذاتها، وأنّ إدراك العالم متوقف على العقل.

أولا: في أهمية المنهج

لما كانت المعرفة اليقينية هي مسعى **ديكارت** في الفلسفة والعلوم على حد سواء فقد أدرك ـ على نحو يكاد يكون غير مسبوق ـ أن هذا المسعى، لا يمكن بلوغه ما لم يحدث تغييرا على مستوى المنهج، ففي نظر ديكارت لا جدوى من طلب الحقيقة من دون منهج أو طريقة، أو كما يقول:« إلاَّ أن صرف النَّظر في البحث عن الحقيقة أفضل من البحث فيها من دون طريقة ». وبالنَّظر إلى أهمية التأسيس المنهجي للحقيقة خصص **ديكارت** لمنهجه الجديد العديد من الكتب منها على وجه الخصوص: (قواعد لتوجيه الفكر) ، و(خطاب عن المنهج). فما طبيعة هذه المنهج؟ وهل الالتزام بقواعد هذه الطريقة يمضي بالعقل قدما نحو الحق واليقين، ومن ثم يبسط الإنسان سيادته على الطبيعة، ويعيش في رفاه؟

1- تعريف المنهج عند ديكارت

المنهج عند ديكارت هو: « جملة قواعد يقينية سهلة تعصم كل من يراعيها بصرامة من حمل الخطأ محتمل الصواب فيتوصل الى معرفة ما هو أهل لمعرفته بتنمية علمه بكيفية متدرجة متواصلة دون أن يهدر أي جهد ذهني». يتأسس المنهج عند ديكارت على فعلين من أفعال العقل، هما: الحدس(*) والاستنباط(**).

(*) الحدس(Intuition) عند ديكارت نُور فطري، يُمكّن الانسان من إدراك الأفكار البسيطة، والحقائق الثابتة، كحدس المرء أن موجود، وأنه يفكر، وأن كل جسم ممتد، وادراك أن المساويان لثالث متساويان ادراكا مباشرا ليس فيه تفكر أو زمن أي دفعة واحدة. وتتميز الفكرة البديهية بالوضوح(Clarté) والتميز (Distinction). ولذلك جعل ديكارت البداهة والوضوح معيارا للفكرة الصادقة.

(**) الاستنباط (Déduction) عند ديكارت هو عملية نقصد بها كلّ ما يستخلص بالضرورة من أشياء أخرى عرفناها معرفة يقينية.

2- قواعد المنهج عند ديكارت:

يذكر ديكارت في كتابه مقال في الطريقة أنه يتكون من أربعة قواعد:

- **قاعدة البداهة والوضوح:**

يقول:« ألا أقبل شيئا ما على أنَّه حق، ما لم أعرف، يقينا أنَّه كذلك: بمعنى أن أتجنب بعناية التَّهور والسَّبق إلى الحكم قبل النَّظر. وألا أدخل في أحكامي إلاّ ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميُّز، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك». وتعرف هذه القاعدة بقاعدة الشك واليقين.

- **قاعدة التحليل:**

من خلال التحليل يتسنى إدراك المشكلة إدراكا تاما، يقول:« أن أقسِّم كل واحدة من المعضلات الَّتي سأختبرها إلى أجزاء قدر المستطاع، وعلى قدر ما تدعو الحاجة إلى حلها على خير الوجوه».

- **قاعدة التركيب:**

يهدف التركيب إلى التأكد من صحة النتائج التي انتهى إليها التحليل، يقول ديكارت« أن أسير بأفكاري بنظام، بادئا بأبسط الأمور وأسهلها معرفة، كي أتدرج قليلا قليلا حتى أصل إلى معرفة أكثرها ترتيبا، بل وأن افرض ترتيبا، بين الأمور الَّتي لا يسبق بعضها الآخر بالطبع».

- **قاعدة الإحصاء والمراجعة:**

وهي آخر قاعدة من قواعد المنهج الديكارتي، وعنها يقول ديكارت:« أن أعمَل في كلِّ الأحوال، من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة، ما تجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئا». من أجل الوصول إلى المعرفة اليقينية.

ملاحظة: ولما كان هدف ديكارت من الفلسفة الجديدة هو تحقيق الرفاه المادي(السعادة) للإنسان، فقد افترض مجموعة من القواعد يهتدي بها في حياته سماها الأخلاق المؤقتة. وتتمثل في:

أن ينصاع الفيلسوف لقوانين وتقاليد بلاده وأن يحافظ على دينه ويتبع في العمل أعدل الآراء وأبعدها عن الغلو.

عدم الاشتراط يقين كامل في الآراء التي يتخذها في الميدان العملي مع الالتزام بالسير حسب الرأي الذي اختير دون تردد.

أن يعني الإنسان بما كان صادرا عن نفسه فحسب ولا يتهم بما يأتيه من الأحداث الخارجية سواء كانت حسنة أو سيئة.

المحور الثاني: المذهب التجريبي وأبرز الرواد

المحاضرة رقم: 3

في ماهية المنهج التجريبي

أولا: في مفهوم المذهب التجريبي

يقوم المذهب التجريبي(Empirisme)على فكرة أساسية هي، أنّ التجربة هي نقطة انطلاق المعرفة الإنسانية، ويترتب على هذا أن لا شيء يوجد في العقل سابق عن التجربة. ومن صور المذهب التجريبي الواقعية، الوضعية بمختلف مدارسها، الإسمية، وحتى المذهب البراغماتي.

ويستند فلاسفة المذهب التجريبي، إلى فرضية أولى وهي اعتبارهم الذهن مجرد لوح فارغ أو صفحة بيضاء[1](*)خال، قبل التجربة من كل معنى أو صورة؛ وأن المعاني والصور والمفاهيم التي يمتلكها إنما هي مستمدة من التجربة الحسية بواسطة الحواس الظاهرة منها أو الباطنة.

وإذا كان العلم الرياضي هو العلم النموذجي عند فلاسفة المذهب العقلي ـ كما سبق ورأينا مع ديكارت ـ فإنّ فلاسفة المذهب التجريبي يعتبرون أنّ العلم التجريبي هو الصورة الأسمى للمعرفة ويشيرون إلى أنّ الذهن البشري يقع في خديعة لو اعتقد بأنّه قادر على الوصول مباشرة إلى أي شكل من أشكال الحقيقة. وبالتبعية، ما يقال عن وجود معان كلية مجردة ليس له من قيمة إلا أن يكون أصله انفعالا حسيا، وأشد المعاني تجريدا(مبادئ العقل، المعاني الرياضية...) لابد أن يكون صادرا عن المصدر نفسه.

وإذ يعتقد العقليون أن المعرفة عملية فكرية خالصة تتأسَّسُ على مبادئ فطرية، توجد في بنية العقل الّذي تصدر عنه معرفتنا لجميع الأشياء، فالمعرفة مرتبطة بالذّات لا بالعالم وهي كامنة، ومهمة الذّات تتمثل في اكتشاف الحقائق، على العكس من هذا، تجد المعرفة عند التجريبيين أساسها في الحدوس الحسية، أو المعطيات الحسية Sens data وهي معطيات فيزيوسيكولوجية مباشرة في الذهن، تتحول بحكم التجربة إلى معاني عامة يستخدمها العقل في عملية التفكير.

(*) الصفحة(الصحيفة) البيضاء باللاتينية (Tabula Rasa)، بالفرنسية(Table Rase) مصطلح استخدمه أرسطو ليدلّ على الكيفيَّة الّتي تكون عليها النّفس قبل حصولها على المعرفة، وقد اصطلح عليها العرب اسم العقل الهيولاني أو العقل بالقوة. أما في الفلسفة الحديثة، وخصوصا عند الفلاسفة التجريبين، فهو يرمز إلى حالة الفطرة الّتي هي أشبه بلوح من الشَّمع لم ينقش عليه شيء. وقد اعترض لايبنتز على هذا الافتراض معتبرا إيّاه مجرد وهم.

ومعيار صدق المعارف هو مدى مطابقة الأفكار الموجودة في الذهن للواقع(مطابقة ما في الأذهان لما في الأعيان). والحال هذه أصبح العقل عند التّجريبيين أشبه بالوعاء الفارغ، الذي يُملأُ بالتّجربة، فهو الصّفحة البيضاء، أو المرآة العاكسة لما يوجد في العالم الخارجي. وقد حل هذا المذهب مشكلة التطابق عبر موقف يجعل العقل يعكس ما هو موجود في العالم الخارجي.

ثانيا: فرنسيس بيكون والصياغة المنهجية للمذهب التجريبي

حاول **فرنسيس بيكون** إقامة منهج علمي لجميع العلوم جديد يرتكز إلى الفهم المادي للطبيعة وظواهرها، وقد صاغ قواعد هذا المنهج بكل وضوح في كتابه **الأرغانون الجديد**(1620) الذي أفصح من خلاله نقض نظرية أرسطو في المنطق بشكل و نظريته في الاستقراء بشكل خاص لأنَّه غير صالح للبحث عن الحقيقة ولا لإبداع علوم جديدة، ومن ثمَّ يكون ضرره على المعرفة أكثر من نفعه. وقسم **بيكون** منهجه العلمي إلى جانبين؛ الجانب الأول يصفه بالجانب السلبي ويتعلق بما اصطلح عليه **بيكون** أصنام العقل، أو نظرية الأوهام الأربعة. أما الجانب الثاني فهو الجانب الإيجابي الذي يتعلق بخطوات المنهج التجريبي عنده.

1. الجانب السلبي ـ نقد العقل

تأثر **بيكون** بنزعة الشك التي سادت عصره، غير أنّ الشكَّ عنده لم يكن لم يكن هدفاً بذاته بل وسيلة كشف من خلالها عن عطالة العقل وقصوره، وأوهامه« **التي استحوذت على الذهن البشري وما زالت متجذرة فيه بعمق لا ترين فقط على عقول البشر فلا تجد الحقيقة منفذا، فإن هذه الأوهام سوف تلاحقنا مرة أخرى في عملية تجديد العلوم نفسها وتضع أمامنا العوائق ما لم يأخذ البشر حذرهم ويحصنوا أنفسهم منها قدر ما يستطيعون**». فلابد من تطهير العقل من هذه الأوهام، حتى لا يبقى ثمة إلاَّ مدخلا واحد إلى مملكة الطبيعة، المدخل القائم على العلوم. وقد قسم بيكون هذه الأوهام إلى أربعة أقسام، وقيض لكل منها اسما بغرض التّمييز بينهما:

- **أوهام القبيلة أو الجنس:**

هي أوهام متأصلة في الطبيعة الانسانية، ومن أمثلة ذلك الميل إلى تصديق ما يصادف هوى في النَّفس وميل العقل إلى التَّسرع في التَّعميم و اصدار الأحكام الكلية، فتراه يصدرا أحكاما عامة بالنظر إلى الحالات المؤيدة دون الالتفات إلى الحالات المعارضة، وهذا هو السبب في الاعتقاد مثلا في صحة الأحلام إذا رأينا حلما قد تحقق.

- **أوهام الكهف:**

إذا كانت أوهام القبيلة تتعلق بالعقل الجمعي فإنَّ أوهام الكهف ترتبط بالعقل الفردي، الذي هو أشبه ما يكون بالكهف الأفلاطوني منه ينظر إلى العالم، وعليه ينعكس نور الطبيعة فيتخذ لونا خاصا. إنَّ لكل واحد منا ميلا إلى تفسير ما تعلمه من آراء ونظريات وفقا لمزاجه أو ما يهواه، إما لأنه يظن نفسه أول من وضعها، وإما لِإيلَافه لها.

- **أوهام السوق:**

وهي من أشد الأوهام خطرا، وقصد بها بيكون أوهام اللُّغة ذلك أنَّ اللُّغة لا تنقل ألفاظًا فقط بل أفكارا يمكن أن تتشكّل العقول من خلالها. وهناك نوعان من الأوهام تفرضهما اللغة على الفهم، هما: إما أسماء لأشياء لا وجود لها، وإما أسماء لأشياء موجودة ولكنها غامضة و ملتبسة.

- **أوهام المسرح:**

سماها بهذا الاسم لأنها أشبه بمسرحيات تقدّم وتؤدي على المسرح، خالقة عوالم من عندها زائفة وهمية. وهذا النوع من الأوهام ناتج أساسا عن الاعتقاد المطلق في صدق فلسفات قديمة ومؤلفين قدماء، والتعصب لها تعصبا يحول بينه وبين تمييز الصادق منها من الكاذب. كاعتقاد علماء العصور الوسطى في صحة نظريات أرسطو في العلم الطبيعي.

2. الجانب الإيجابي ـ المنهج الاستقرائي

ذهب بيكون في الجزء الثَّاني من الأرغانون الجديد، وعنوانه: (تفسير الطبيعة وسيادة الإنسان)،أنه لو أراد أحد من النَّاس أن يترك جانبا، الأصنام التي يؤمن بها عقله، وأن يشرع بعناية ودقة، في دراسة ظواهر الطبيعة، لاستطاع أن ينفذ إلى كبد الطبيعة، على نحو لا يستطيعه إذا ما استخدم المنهج الاستنباطي الذي يصدر عن مقدمات نظرية جاهزة. وعليه لابدَّ من إحداث قطيعة منهجية مع هذا المنطق والاعتماد على منهج آخر، قوامه الملاحظة والتجربة.

وفي هذا الإطار قدم **بيكون** منطقا تجريبيا يقوم على الاستقراء الناقص، يعتمد على مبدأ أساسي هو العزل أو الاستبعاد أو الرفض؛ فلا يمكن البرهنة على أي تعميم (أي قانون) بأي عدد من الأمثلة المؤيدة، لكن مثلا واحدا يكفي لنقضه، فالأمثلة السلبية التي تنقض هي عنده أهم من في البحث العلمي من الامثلة الايجابية التي تؤيده. وإذا كان المنهج القديم يرمى إلى ترتيب الموجودات في أنواع وأجناس،

فإن المنهج الجديد يهدف إلى تحليل الظواهر المعقدة إلى عناصرها البسيطة قصد معرفة صورها، أي أسبابها المادية. و يتم ذلك من خلال مرحلتين أساسيتين هما: مرحلة التجريب ومرحلة الترتيب.

ثالثا: جون لوك وأولوية السؤال الإبستيمولوجي

لم ينشغل جون لوك (John Locke) (1632–1704) بالأسئلة الفلسفية التقليدية المتعلقة بالوجود، والنفس والعالم والألوهية، لإيمانه الشديد بأولوية السؤال الإبستيمولوجي على غيره من الأسئلة الفلسفية، وخاصة الأنطولوجي منها. بل حتى السؤال الأخلاقي السياسي في نظره يحتاج إلى التأسيس الإبستيمولوجي« لذلك كان شعاره دائما أن ثمة ميلا أصيلا نتمثله في الطبيعة البشرية: وهو أن الإنسان يروم من المعرفة حياة خيرة سليمة، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتحديد ضوابط الفهم الإنساني». فقبل أن نبدأ في البحث في المعرفة الإنسانية يجب أولاً البحث في أداة هذه المعرفة وهى الفهم البشرى.

ويُعدُّ كتابه مقالة في الفهم الإنساني(1690) في نظر مؤرخي الفكر الفلسفي البيان التأسيسي للاتجاه الحسّي، حيث قدم من خلاله أوَّل صياغة كاملة للمذهب الحسّي في صورته المعتدلة(*)، انطلاقا من قراءة نقدية متفحصة لنظرية المعرفة كما تبلورت عند التيار العقلاني وعند ديكارت بالذات.

وبدلا من نظرية الأفكار الفطرية يؤكد لوك أنّ جلّ معارفنا مستمدة من التجربة، يقول: « فلنفترض إذن أنّ العقل هو، كما نقول، صفحة بيضاء خالية من كل صورة وبدون أية أفكار، فكيف له أن يمتلئ إذن؟ على هذا أجيب بكلمة واحدة: من التجربة. ففيها تقوم كل معارفنا، ومها تشتق بالكامل». ويتم ذلك إما عن طريق الإحساس الخارجي أو عن طريق الإحساس الباطني. وبناء على هذا قسم جون لوك الأفكار إلى نوعين: أفكار بسيطة وأخرى مركبة.

الأفكار البسيطة: هي صور ذهنية بسيطة للأشياء(مواد خام) يتلقها الذهن مباشرة من الادراكات الحسية، وهي ترتبط بصفات الأشياء أو الشيء المحسوس، كالبرودة، والصلابة والامتداد، والشكل.

الأفكار المركبة: هي ثمرة النشاط الإيجابي للعقل؛ إذ يبدعها العقل انطلاقا من الأفكار البسيطة، عن طريق التركيب، الفصل، المقارنة، التجريد... ولا يقابل الأفكار المركبة محسوس خارجي كما هو الشأن في الأفكار البسيطة.

(*) يبلغ المذهب الحسّي حدوده القصوى، عند تطبيقه الراديكالي للمعيار الحسّي كما هي الحال مع الفيلسوف الفرنسي إتين كوندياكE. Condillac (1712 ـ 1730)، من فلاسفة عصر التنوير، وإرنست ماخErnst Mach (1838ـ 1916) الفيزيائي والفيلسوف النمساوي.

المحور الثالث: المذهب الوضعي

المحاضرة رقم: 6

المذهب الوضعي في العلوم الإنسانية

أولا: في مفهوم الوضعية

الوضعية اتجاه فلسفي، يرى أنَّ الفكر الإنساني لا يدرك سوى الظَّواهر الواقعية والمحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين، وأنَّ تقدم المعرفة منوطا باتجاهها نحو العلوم الفيزيائية والعلوم التجريبية بوصفها المثل الأعلى لليقين والصِّحة والدِّقة. وتسمى الوضعية أحياناً الإيجابية فمصطلح الوضعية positivisme مشتق في اللغات اللاتينية من الإيجابيpositif، والعلاقة بينهما معنوية بقدر ما هي لغوية. وهي قبل كل شيء موقف معاد لكلِّ الأبحاث الماورائية (الميتافيزيقية)، وكلّ مذاهب التعالي والمثالية بوصفها أنماطا متخلفة و ورجعية من أنماط الفكر، ويعتبر أنّ المفاهيم غير الوضعية (أو الإيجابية) وكلّ ما هو خارج نطاق المحسوس، هو تأمل محض أو أفكار وهمية خيالية، فلا وجود إلاَّ للمُحَسِّ المادي المتجسّد وكل ما لا يمكن قياسه وإدراكه إدراكا حسيّا فهو مزدرى مرفوض.

وأظهر فلاسفتها أوجست كونت الذي استهدفت محاولته تحقيق غرضين؛ الأول هو جعل العلوم الإنسانية علوم وضعية؛ والثاني تنظيم شتى العلوم بما لها من قوانين ومناهج، وما تتناوله من موضوعات للبحث في بناء نسقي واحد بحيث يصبح هذا البناء النسقي ـ وهو الفلسفة الوضعية ـ معيارا حتى أن ما لا يقع في حدود هذا البناء لا يكون من العلم في شيء.

لقد مضى عهد اللاهوت و انقضى عصر الفلسفة التأملية، وأصبح التفكير الوضعي (المرحلة الوضعية) هو النهاية المحتومة لتطور الفكر الإنساني، الذي أصبح على وعي تام باستحالة الحصول على مفاهيم مطلقة، وضرورة الاكتفاء في المقابل بالبحث والكشف عن طريق البرهان والتجربة عن قوانين الظواهر و علاقاتها الثابتة تماما كما في العلوم الطبيعية.

وإذا كانت الفلسفة الوضعية قد ارتبطت بشكل واضح بآراء كونت، فإنّ هذا لا يعني أنّ هذه الفلسفة وليدة الفكر الكونتي لا غير، فالفلسفة التَّجريبية الَّتي تجسدت على وجه الخصوص من خلال أعمال فرنسيس بيكون ومن بعده جون لوك ودافيد هيوم، أثر واضح في نمو الاتجاه الوضعي وتحديد أهدافه. إنَّ

هيوم ـ على سبيل المثال ـ يعدّ أحد الرّواد الأوائل للمدرسة الوضعية أو كما قيل عنه« إنّه أول فيلسوف وضعي بالمعنى الشّامل والدقيق» ذلك أن المعرفة المستندة إلى الخبرة موضوعية، وأن المقولات والأطروحات تكتسب معناها الحقيقي فقط إذا ما تَّمَّ التَّحقق منها، من خلال الملاحظة المستندة إلى التجربة.

وكان تحليل هيوم لطبيعة الفهم الإنساني تطبيقا للمنهج التَّجريبي وتبرير إبستمولوجيا له. ولتسمية هيوم أهم مؤلفاته (بحث في الطبيعة البشرية) مغزاه؛ فلقد تصور البشرية على غرار الطبيعة وأشار صراحة إلى أنَّ منهج الطّبيعة البشرية هو بذاته العلم الطَّبيعي، وكان يأمل في أن يحدث ثورة في العلوم الإنسانية بواسطة منهج تجريبي مستفاد من منهج العلم الطَّبيعي. في فلسفة هيوم تتداخل الطَّبيعة بالإنسان، كما تتداخل مناهج دراسة الطَّبيعة مع مناهج دراسة الإنسان، وتتلاشى الحدود بين ما هو إنساني وما هو طبيعي، لقد تصور هيوم الطَّبيعة على غرار الإنسان، وأكد وحدة المنهج بينهما، وفي مقابل هذا هاجم الميتافيزيقا بحدة.

أما الوضعية كنسق نظري متكامل، فقد ظهرت في العقد الموالي لوفاة هيجل وهي ترجع بالأساس إلى إسهامات؛ فريدريك شيلنغ Friedrich Schelling (1775-1854)؛ و جهود سان سيمون Saint-Simon(1760-1825) حيث قال:« في كل أقسام مؤلفاتي سوف اهتم بتقرير مجموعة من الوقائع لأنَّني مقتنع بأنَّ هذا هو الجزء الوحيد الراسخ في معرفتنا، أما اللاَّهوت والميتافيزيقا وكذلك كلّ التَّصورات والقيم الترنسندنتالية فمن الواجب اختبارها بمعيار المنهج الوضعي للعلوم الدقيقة». ليس هناك ما يدعو إلى تجاوز ما هو موجود بالفعل، بل كل ما تحتاج إليه الفلسفة والنَّظرية الاجتماعية هو أن تفهم الوقائع و تنظمها. ومن هذه الوقائع ومنها وحدها تستمد الحقيقة، ولا بد أن يطبع علم الإنسان بطابع وضعي عن طريق بنائه على الملاحظة ومعالجته بالمنهج المستخدم في العلوم الطَّبيعية. و تحددت ملامح الاتجاه الوضعي وخاصة في علم الاجتماع مع كونت ومن بعده دوركايم .

ومن رُوَّاد الاتجاه الوضعي كذلك، الفيلسوف الإنكليزي جون ستيوارت مل فقد وضع من خلال كتابه (نسق المنطق) الأساس الفلسفي و المنطقي الحاسم، للتَّجربة كأساس للمعرفة. ونادى بضرورة استخدام مناهج العلوم الطَّبيعية في دراسة الظواهر الإنسانية، فـ« حالة التخلف التي تعانيها علوم الروح لا يمكن تلافيها، إلا بتعميم المناهج التي أثبتت نجاحها في العلوم الطبيعية». وإذا كان أمر المذهب الوضعي من النّاحية التاريخية كما تم ذكره فما هي الأسس الإبستمولوجية الَّتي أقام عليها الاتجاه الوضعي موقفه من العلوم الإنسانية والمنهج المتبع في دراسة موضوعاتها؟

ثانيا: الأسس الإبستمولوجية للمنهج الوضعي

1. يعتبر الاعتقاد في وحدة العلم أبرز أساس إبستيمولوجي ارتكز عليه الوضعيون في تبرير دعواهم في القول بوحدة المنهج بين العلوم الإنسانية و العلوم الطبيعية، فليس هناك علوم طبيعية وأخرى إنسانية، فما يوجد إضافة إلى العلوم بالصورية الَّتي تضم الرياضيات والمنطق العلوم الواقعية والَّتي تضم على السواء علوم الطبيعة وعلوم الإنسان والمجتمع.
2. خضوع الظواهر الاجتماعية كغيرها من الظواهر لقوانين طبيعية ثابتة، وعليه فالمنهج الملائم للحصول على هذا النَّوع من المعرفة والَّذي ينبغي على العلوم الإنسانية الاقتصار على استخدامه هو منهج العلوم الطَّبيعية، وبحسب كونت ما دمنا نفكر بشكل وضعي في مادة علم الفلك أو الفيزياء لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدِّين فالمنهج الوضعي الَّذي نجح في العلوم الطَّبيعية غير العضوية يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير. وعليه فالدعوة إلى دراسة الظواهر الإنسانية دراسة تجريبية لا تعني سوى التَّأكيد على وحدة المنهج في التَّفكير بغض النَّظر عن الموضوع المدروس.
3. يعتبر الوضعيون النُّموذج الطَّبيعي سلطة مرجعية للعلوم الإنسانية، ولقد انعكس هذا على تعريفهم للعلوم الإنسانية، فهي فرع من فروع العلم الطبيعي بالمعنى الواسع للكلمة. والفرق بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية هو فرق في الدرجة وليس فرقا في النوع، وهذا ما يجعل تطبيق المنهج العلمي على العلوم الإنسانية أكثر صعوبة ولا يجعله من الناحية المنطقية مستحيلا.
4. تحديد وظيفة الفلسفة في كونها مجرد منهج للبحث هدفه التَّحليل المنطقي للُّغة سواء تلك الَّتي يستخدمها في حياتنا اليَّومية، أو الَّتي يصطنعها العلماء لمباحثهم العلمية، لأنَّ كل ما نريد معرفته عن العلم والإنسان ومكانته منه، يمكن أن يستقي من العلوم الطبيعية الَّتي تدرس الكون والعلوم الإنسانية الَّتي تدرس الإنسان وليس للفلسفة بعدهما مجال.
5. الموضوعية عند أنصار الوضعية هي اعتبار العالِم الظَّواهر الإنسانية الَّتي يدرسها كما لو كانت أشياء بلغة دوركايم، وكأنَّها صورة أخرى للظَّواهر الطَّبيعية والكيميائية والبيولوجية.

ثالثا: مجالات الوضعية في العلوم الإنسانية

بنا كثير من المهتمين بالعلوم الإنسانية، كعلماء الاجتماع وعلماء النَّفس و المؤرخون علومهم على الأسس المنهجية الوضعية، لقد نظر كونت إلى علم الاجتماع نظرته للفيزياء ففي نظره القوانين الطبيعية تحدد تطور الجنس البشري مثلما يحدد قانون الطبيعة سقوط الحجر، ومدام لدينا الآن فيزياء سماوية، فما

زلنا بحاجة إلى تأسيس نوع آخر وأخير من الفيزياء هي الفيزياء الاجتماعية la physique sociale حتى يكتمل نسقنا المعرفي عن الطبيعة. و الفيزياء الاجتماعية أو علم الاجتماع هو ذلك العلم الَّذي يتخذ من الظَّواهر الاجتماعية موضوعا لدراسته باعتبار هذه الظَّواهر من نفس روح الظَّواهر الفلكية والطَّبيعية والكيماوية والفسيولوجية من حيث كونها موضوعا للقوانين الطَّبيعية الثابتة، ولن يتحقق هذا إلاَّ إذا خضعت الظَّواهر (الوقائع) الاجتماعية للمنهج العلمي المتبع في دراسة الظَّواهر الطَّبيعية، أي بقيام علم وضعي جديد « يختص ببحث الوقائع بدلاً من الأوهام المتعالية وبالمعرفة النَّافعة بدلاً من التَّأمل العقيم وباليقين بدلاً من الشكِّ والتَّردد وبالتَّنظيم بدلاً من السَّلب والهدم». ويتم هذا بتوافر شرطين: الشرط الأوَّل أن تكون هذه الظَّواهر خاضعة لقوانين ولا تسير وفق الأهواء والمصادفات. و الشرط الثاني أن يتمكن الأفراد من معرفة هذه القوانين، من خلال قيام الباحثين بالكشف عنها وتعريف النَّاس بها.

وبشكل عام، ركز كونت على أن يصطنع في دراسته الوقائع الاجتماعية المنهج الوضعي المستخدم في دراسة وقائع العلم الطبيعي، وأن يطرح آراؤه المنهجية في إطار تصوراته عن الفلسفة الوضعية الَّتي اعتمدت على المكونات العامة للمنهج العلمي المتمثلة في: الملاحظة، التجربة المقارنة، المنهج التاريخي. ثم سعى دوركايم إلى أن يكمل مسيرة كونت في تحديد ماهية علم الاجتماع واعتباره علم وضعيا.

وأعلن السلوكيون أنّ علم النَّفس « شعبة تجريبية موضوعية خالصة من العلم الطَّبيعي. وهدفه النَّظري هو التَّنبُّؤ بالسُّلوك وضبطه»، فهو لا يعنى بدراسة المفاهيم الفلسفية التَّأملية، كالشعور والتَّفكير والعقل وغير ذلك.

كما انتشر المنهج الوضعي التَّاريخي بشكل واضح على يد المؤرخان شارل سنيبوس وشارل لانجلوا وأظهرا فيه إيمانهما بالحقيقة القائمة على التَّسلل السَّببي للحوادث الَّتي تتأكد تاريخيتها بشكل علمي وذلك بسب تطور العلوم الَّتي أعطت للإنسان القدرة على الوصول إلى الحقائق التَّاريخية، فكما يراقب الكيمائي اختباراته، فالوثيقة هي مادة البحث « والتَّاريخ يصنع من وثائق، والوثائق هي التي خلفتها أفكار السلف وأفعالهم(...) إذ لا بديل عن الوثائق: وحيث لا وثائق، فلا تاريخ». بتوافر هذه الوثائق يستطيع المؤرخ أن يفسر اغتيال قيصر كما يفسر الجيولوجي زلزالا، إذ يبين أنَّ الحادثة لم تقع مصادفة وإنَّما وفقا لظروف معينة فمنطق التَّفسير واحد في جوهره في كل من التَّاريخ والعلوم الطَّبيعية، وليس التنبؤ في التَّاريخ تكهنيا ولكنَّه تنبؤ علمي قائم على افتراض قوانين عامة لا غنى عنها للمؤرخ.

المحور الخامس: المذهب الوجودي

المحاضرة رقم: 7

المذهب الوجودي المفهوم وأبرز الأفكار

تمهيد:

يعد المذهب الوجودي ــ وإن كان هناك من ينفي الصفة المذهبية عن الوجودية ــ واحد من أبرز المذاهب التي عرفتها الفلسفة بوجه عام والفلسفة المعاصرة بوجه خاص.

أولا: مفهوم الوجوديَة

الوجوديّة Existentialisme تيار فلسفي معاصر، ظهر في القرن العشرين وعرف انتشارا في ثلاثينيَات وأربعينات القرن ذاته، نتيجة تفاقم البؤس والفقر واشتداد الشعور بالضياع والاغتراب، والقلق تجاه الحاضر والمستقبل، والأزمة العميقة الَّتي عاشها الإنسان بكل وجدانه نظرا لوجوده في عالم لا مخرج له مما هو فيه. ممّا جعل مفكري ذلك العصر يبحثون عن فكر أو تيَار يعيد للإنسان قيمته، ويعزز أهميَة وجوده، ويعيد ثقته في نفسه، وتأكيد قدرته التي لا حد لها سوى الموت.

لقد أخضع هؤلاء المفكرون على نحو جدي وجذري، وجود الإنسان في فرديته، وفي نسيج حياته النفسية والاجتماعية والمادية، للتساؤل حول معنى هذه الحياة حول قيمتها، وحول طبيعة مسارها: أتقدم هو كما بشر بذلك فلاسفة عصر الأنوار، أم أنها إلى تقهقر كما تخبر بذلك النُّصوص الدينية، كالنُّصوص الإنجيلية، وما يؤكده واقع ما بعد الحرب العالمية الأولى.

ولقد عرفت الوجودية إلى جانب تأثيرها على الفكر الفلسفي تأثيرا مبشرا وواسعا على مظاهر الحياة الاجتماعية خاصة لدى الشباب. كما أنها أثرت في أوج ازدهارها على بعض العلوم الاجتماعية كعلم النفس والتربية والفنون التشكيلية أيضا. أما حضورها الأشد فعالية فنجده في الانتاج الأدبي كالرواية والأدب المسرحي. ولعل هذا ما دفع الوجودي الألماني بول يوهانس تيليتش (Paul Johannes Tillich) (1886 ـ 1956) بتقريظ الوجودية ووصفها في كتابه الشجاعة من أجل الوجود على أنّها تجلّ لشجاعة اليأس في الفن العظيم، والأدب العظيم، والفلسفة العظيمة للقرن العشرين[1]. وهكذا أصبحت

[1] بول تيليش: **الشجاعة من أجل الوجود**، ترجمة: كامل يوسف حسين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان، ط1، 1981.

مفاهيم من قبيل الوجود، العدم، القلق الالتزام، الحرية، الموت، العبث، والمسؤولية...إلخ، هي المفاهيم الأكثر تداولا.

1. تعريف الوجودية

الوجودية بمعناها العام: هي إبراز قيمة الوجود الفردي للإنسان، وهي مذهب كيركجارد وهيدجر وبردائيف وغيرهم. أما الوجودية بالمعنى الخاص هي المذهب الذي عرضه الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر J.P.Sartre(1905 ـ 1980) في كتابه: الوجود والعدم(1943) ونشره في الجمهور بواسطة مسرحياته ورواياته[*]2 ومقالاته في مجلة الأزمنة الحديثة. يستمدّ المذهب اسمه من الأطروحة القائلة: «إن الوجود يسبق الماهية». الإنسان دون غيره هو الذي لا يظهر بوصفه كائنا فحسب، لأن كينونته مستمدة من أن يدرك عن وعي من هو أو ما هو؟ ومن سيكون أو ماذا سيكون؟ ويلازم هذا الوجود فعل خاص؛ هو الذي يقول أنا.

وقد جرت العادة تقسيم الوجودية، إما تقسيما جغرافيا لغويا؛ إذ يقال وجودية ألمانية في مقابل الوجودية الفرنسية، أو تقسيمها بالنَّظر إلى علاقتها بالدين؛ فيقال الوجودية المؤمنة ومن أشهر روادها الدانماركي غابرييل مارسيل، الألماني كارل ياسبرز في مقابل الوجودية الملحدة ومن أشهر روادها سارتر، والفرنسية الفيلسوف والأدبية سيمون دي فوار وألبير كامو، وجميعهم ينكرون وجود الله، واعتبروا الإنسان خالقا لذاته.

ثانيا: مبادئ المذهب الوجودي

1. أسبقية الوجود على الماهية

تضع الوجودية ــ بدلا من الوجود العام الذي اتّخذه أرسطو موضوعا للميتافيزيقا ـ الوجود الفردي المشخص الواقعي في الموضع الأوّل من النَّظر الفلسفي. وتؤكد أسبقية الوجود(Existence) على الماهية(Essence). فالوجودية كما يدل اسمها، تهتم بالوجود المشخص الذي يشعر به الفرد الإنساني والاهتمام به بالذات، وجعله موضوع الفلسفة مع استبعاد تام للتصورات الميتافيزيقية والماهوية(نسبة إلى الماهية) التي شغلت فلسفات الماهية يقول ياسبرس: « أن كلمة وجود هي أحد مرادفات كلمة واقع، بيد إنها قد اتخذت وجهاً جديداً، بفضل التوكيد الذي أكده عليها كيركجارد فأصبحت تدل على ما أنا إيَّاه بصورة أساسية ذاتي». ويذكر سارتر في عرضه للوجودية« إن الوجود متقدم على الماهية(...) وهذا

[*] ألف سارتر العديد من الروايات: الحائط(1933)، الغثيان(9319)، الذباب (دراما من ثلاثة فصول)؛ الوجود والعدم: محاولة أونطولوجية ظاهراتية؛ دروب الحرية؛ الجلسة المغلقة. (1945 ـ1949).

مضاد لقول القدماء: إنَّ الماهية متقدمة على الوجود، وإن الوجود أمر زائد على الماهية». فالإنسان ليس جوهرا، إنه وجود لا ماهية له تسبق وجوده، فتعينه وتحدده، أو ينخرط في مكوناتها من قبل خالق أو مطلق أو منظومة فكرية. ومن التناقض أن يبحث الإنسان عن الوجود خارج ذاته. وليس الوجود شكلا للجوهر أو فعلا للماهية، حيث يصبح الوجود لاحقا على الماهية. والحال هذه فـ« إن أفضل ما تفعله الفلسفة أن تدع جانبا ادعاءها الأثير لتفسير العالم تفسيرا معقولا وأن تركز اهتماماتها على الإنسان فتصف الوجود كما هو. هذا وحده هو المهم، أما الباقي فعبث» على حد تعبير كيركجارد.

وبالفعل قلب الوجوديون الكوجيتو الديكارتي(أنا أفكر إذن أنا موجود)، رأسا على عقب، وصار القول: إنني أولا وقبل كل شيء موجود، فأنا موجود، إذن، أنا أفكر. فالإنسان ليست ذاتا معطاة ناجزة إنه موجود ناقص، وهو قبالة العديد من الإمكانيات غير المتعينة، وعن طريق القرار الحر يختار بعضا منها لتشكل الذات. بهذا المعنى يمكن أن نفهم أن الإنسان مشروع ذاته، ونفهم أيضا معنى الوجود الأصيل.

وإذا كانت الفلسفة الوجودية انقلابا على العقلانية الديكارتية، فإنها قد جاءت أيضا ردا على الفلسفة الهيجلية(نسبة إلى الفيلسوف الألماني هيجل)، فهي تتخذ من الإنسان وواقعه محورا لها تعمل على عكس المنطق الهيجلي الشامل، والذات التي تهتم بها ليست هي الذات المفكرة، بل هي الذات الفاعلة، الذات التي تكون مركزا للوعي، الذات التي تدرك مباشرة وعينيا في فعل الوجود المشخص. وحين تتكلم عن الحرية تبتعد عن فهم الضرورة واعتبار الوجود مظهرا للروح.

2. مبدأ وحدة الوجود

يشكل هذا المبدأ بوجه من الوجوه موقف الوجوديين من المعرفة؛ لقد رفض الوجوديون الدخول في الجدل المحتدم بين الفلاسفة حول أصل المعرفة وطبيعتها، وخاصة الفصل بين الذات والموضوع؛ في نظرهم ينتج عن هذا الفصل فهم خاطئ للواقع، ويطرح إشكالا يتعلق بكيفية معرفة الذات للعالم الخارجي. كما رفضوا أن يكون الاختبار المطلق منطلقا في استنباط الواقع والكشف عن الذات. إن المعرفة هي المعرفة بالإنسان: الفرد والآخر، تقوم على وحدة الذات والموضوع، أو وحدة الوجود. هذه هي نقطة البداية التي لخصها مصطلح هيدجر الدزاين/ Dasein (الموجود ـ هناك). الكائن الملقى به في العالم ـ مع ـ الآخرين.

وحيث أن مشكلة المعرفة ترتبط بمشكلة الوجود؛ فكل ادعاء بالمعرفة لابد أن يتضمن تقريرا عما هو موجود وغير موجود، وكلّ تقرير عن الواقع هو ادعاء بالمعرفة، فإن السؤال في الوجودية، أضحى

على خلاف ما كان عليه في الفلسفة، لا ينطلق من شروط المعرفة واليقين بل من الوجود البشري. لم يعد السؤال الإبستيمولوجي الركيزة الأساسية للفهم وتحقيق الذات، بل صار محور النَّظر الفلسفي السؤال: ماذا أكون؟ لقد أخضع هؤلاء المفكرون وجود الإنسان في فرديته، في نسيج حياته النفسية والمادية والاجتماعية لجذرية التساؤل حول معنى هذه الحياة وحول قيمتها. إنَّ السؤال في الفلسفة الوجودية هو سؤال أنطولوجي بامتياز، يتعلق بالوجود المشخص للإنسان. وهذا ما يفسر أولوية الأنطولوجي عندهم على الإبستيمولوجي.

3. مبدأ الحرية المطلقة

من أهم خصائص الذات عند الوجودية هو الاختيار بين الممكنات المتاحة للفرد في وجوده، هذا الاختيار ـ الحرية ليس إمكانية انتقاء، بل هو عملية إيجاد الذات في كل لحظة، وطالما أن الإنسان مشروع ذاته فإن «الانسان حرية»، بل « إنه محكوم عليه أن يكون حرا». ولأجل ذلك يقرر سارتر أن على الفلسفة الحقة؛ فلسفة الوجود، أن تكون فلسفة حرية. والحرية وإن كانت مطلقة، فهي ليست اختيارا مجانيا، إذ ترتبط أشد الارتباط بالمسؤولية. وهذه الحرية المسؤولة هي فيصل التفرقة بين نوعين من الوجود: النوع الأول هو الوجود الأصيل: الوجود ـ لـ ـ ذاته(l’ être–en–soi)، أما النوع الثاني فهو الوجود الزائف: الوجود ـ في ـ ذاته(l’ être–pour–soi) وهو العالم الموضوعي، عالم الحتمية والجبرية.

4. مبدأ المسؤولية

إن الإنسان عندما يختار بحرية ما سيكون عليه من ماهية، فإنه يصبح مسؤولا عن اختياره، أي عما يصدر عنه من أفعال. والإنسان لا يتحمل المسؤولية عن نفسه فقط، وإنما عن الإنسانية ككلّ: فأنا عندما أرتضي سلوكا لنفسي، أكون قد ارتضيته للإنسانية كلّها، وشرعته لها، يقول سارتر في هذا الصدد: « وهكذا أكون مسؤولا أمام نفسي وأمام الجميع، فأبدع صورة محددة للإنسان الذي أختاره، و باختياري لنفسي، فإني أختار الإنسان». ولما كانت المسؤولية بهذا التحدي والرهان كان من الضروري أن يلازمها شعور دائم بالقلق، وهذا الأخير ليس قلقا مرضيا يدعو إلى الاستكانة، بل قلق طبيعي(قلق خلاّق) الذي ينتاب الإنسان الحر والمسؤول. ولعل تحدي (إمكانية التناهي) هي المُوّلد الأساسي للقلق الوجودي فالإنسان محدود من ناحية بلحظة الميلاد، والأفظع من الناحية الأخرى بلحظة الموت. حتى أن هيدجر عرف الإنسان(الإنية Dasein) بأنه (وجود ـ للموت). فالكائنات الحية الأخرى تنتهي، وحده الإنسان الذي يموت.

ملاحظة هامة جدا

للمحاضرات هوامش وإحالات تم حذفها عمدا. ويمكن الرجوع إلى المصادر والمراجع التي ذكر البعض منها في متن المحاضرات، كما يمكن الاعتماد على الكتب على سبيل المثال لا الحصر.

1. ابن منظور: لســـــــان العرب، ج2، مادة: نهج، دار صادر، بيروت ــ لبنان، د. ت.
2. عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي.
3. لالاند، أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد (3،2،1)، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت - باريس، منشورات عويدات، ط1، 1996.
4. جلال الدين سعيد: معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، 2004.
5. الطاهر وعزيز: المناهج الفلسفية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ــ المغرب، ط1، 1990.
6. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982.
7. معن زيادة: الموسوعة الفلسفية العربية، (3،2،1)، تحرير معن زيادة، معهد الانماء العربي بيروت ــ لبنان، ط1، 1986.
8. كميل الحاج: الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت ــ لبنان، ط1، 2000
9. رونيه ديكارت : قواعد لتوجيه الفكر،ترجمة سفيان سعدالله (د ط) دار سرار للنشر ،تونس ،2001
10. رنيه ديكارت: مقال عن المنهج، ترجمة، محمود محمد الخضيري، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.